

## ترجمة العربي

في كتاب شذرات الذهب

لابن العماد الحنبلي

محمود الأرناؤوط

**حين** قمت بتحقيق كتاب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، لابن العماد الحنبلي، بين عامي (1983-1995)، استوفقتني تراجم كثيرة لعدد كبير من أعيان الزمان، ممن ترجم لهم ابن العماد في كتابه بإتصاف يسجل له ويحمد عليه على مرّ الأيام، وهو الحنبلي الذي يفترض به التشدد في موقفه من أهل التصوف. وكانت ترجمة (ابن العربي) في الطليعة من تلك التراجم، فقد جاءت في الكتاب كأحسن مثال على حياد ابن العماد وإنصافه لجميع من ترجم له في تلك المعلمة الكبيرة. وذلك ما عبرت عنه في حينها في الفقرة الأخيرة من الصفحة (92) من مقدمتي للكتاب. وحين عزمت على إصدار عدد خاص عن (الإمام ابن العربي) رأيت من المفيد تقديم ترجمته هذه للقراء، لتكون خير دليل على حياد ابن العماد، وعلى حرصه على رؤية من يترجم له بعينه، لا بعين واحدة كما يفعل كثير من الناس في أيامنا، فيرون في خصومهم الهنات والأخطاء، ويغضون الطرف عما كان في سيرهم من الفضائل والحسنات. وإليك الترجمة كما كتبها كاتبها مع التعليق عليها.

(وفيهما توفي سنة 638هـ) أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي<sup>(1)</sup>، العارف الكبير، ابن عربي، ويقال: ابن العربي.

\* باحث من سورية.

(1) أنظر ترجمته ومصادرها في: "سير أعلام النبلاء"، (48/23-49)، و"تاريخ الإسلام"، (352/64-359)، و"الإعلام بوفيات الأعلام"، ص (265)، و"طبقات الأولياء" لابن الملقن ص (469/470)، و"الأعلام" (28/6-282)، و"معجم المؤلفين"، (533/531/3)، من طبعة مؤسسة الرسالة.



غير المعاني المتعارفة منها، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر. نصَّ على ذلك الغزالي في بعضه كتبه، وقال: إنه شبيه بالمتشابه من القرآن والسنة، مَنْ حمّله على ظاهره كفر.

قال السيوطي أيضاً في الكتاب المذكور: وقد سأل بعض أكابر العلماء بعض الصوفية في عصره: ما حملكم على أن اصطلاحتم على هذه الألفاظ التي يستشنع ظاهرها؟ فقال: غيره على طريقنا هذا أن يدعيه من لا يحسنه، ويدخل فيه من ليس من أهله. إلى أن قال: وليس من طريق القوم إقراء المريدين كتب التصوف؛ ولا يؤخذ هذا العلم من الكتب، وما أحسن قول أحد العلماء لرجل قد سأله أن يقرأ عليه "تائية ابن الفارض"، فقال له: دع عنك هذا، من جاع جوع القوم، وسهر سهرهم، رأى ما رآوا، ثم قال في آخر هذا التصنيف: إن الشيخ برهان الدين البقاعي قال في "معجمه": حكى لي الشيخ تقي الدين أبو بكر بن أبي الوفاء المقدسي الشافعي، قال وهو أمثل الصوفية في زماننا- قال: كان بعض الأصدقاء يشير عليّ بقراءة كتب ابن عربي، وبعض يمنع من ذلك، فاستشرت الشيخ يوسف الإمام الصّفي في ذلك، فقال: اعلم يا ولدي سرفك الله- أن هذا العلم المنسوب إلى ابن عربي ليس بمخترع له، وإنما هو كان ماهراً فيه. وقد ادعى أهله أنه لا تمكن معرفته إلا بالكشف، فإذا فهم المريد مرماه فلا فائدة في تفسيره، لأنه إن كان المقرّر والمقرّر له مطلعين على ذلك، فالتقرير تحصيل الحاصل. وإن كان المطلع أحدهما، فتقريره لا ينفع الآخر، وإلاّ فهما يخبطان خبط عشواء. فبسبيل العارف عدم البحث عن هذا العلم، وعليه السلوك فيما يوصل إلى الكشف عن الحقائق، ومتى كشف له عن شيء علمه. ثم قال: استشرت الشيخ زين الدين الخافي، بعد أن ذكرت له كلام الشيخ يوسف، فقال: كلام الشيخ يوسف حسن، وأزيدك أن العبد إذا تخلق ثم تحقّق ثم جذّب؛ اضمحلت ذاته، وذهبت صفاته، وتخلّص من السوى. فعند ذلك تلوح له بروق الحق بالحق، فيطلع على كل شيء، ويرى الله عند كل شيء، فيغيب بالله عن كل شيء ولا شيء سواه، فيظن أن الله عين كل شيء، وهذه أول المقامات، فإذا ترقى عن هذا المقام وأشرف على مقام أعلى منه، وعضده التأييد الإلهي، رأى أن الأشياء كلها فيض وجوده تعالى لا عين وجوده، فالناطق حينئذٍ بما ظنه في أول مقام، إما محروم ساقط، وإما نادم تائب، وربك يفعل ما يشاء. انتهى.

ولقد بالغ ابن المقرئ في "روضته" فحكم بكفر من شك في كفر طائفة ابن عربي، فحكمه على طائفته بذلك دونه، يشير إلى أنه قصد التنفير عن كتبه، وإن من لم يفهم كلامه ربما وقع في الكفر باعتقاده خلاف المراد، إذ للقوم اصطلاحات أرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر ربما كفر. كما قاله الغزالي.

وقال المناوي: وعول جمع على الوقف والتسليم، قائلين: الاعتقاد صبغة، والانتقاد حرمان، وإمام هذه الطائفة شيخ الإسلام النووي، فإنه استفتى فكتب: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مِمَّا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة: 134]، وتبعه على ذلك كثيرون، سالكين سبيل السلامة. وقد حكى العارف زرّوق عن شيخه النووي، أنه سئل عنه فقال: اختلف فيه من الكفر إلى القُطبانية، والتسليم واجب، ومن لم



الاعتقاد في ابن عربي، ويحمل كلامه على المحامل الحسنة، وطرزَ شرحه لـ "البخاري" بكثير من كلامه، انتهى.

ومما يشهد بذلك؛ ما أجاب به على سؤال رفع إليه، لفظه: ما تقول العلماء -شدُّ الله بهم أزر الدِّين ولمْ بهم شعثُ المسلمين- في الشيخ محيي الدِّين بن العربي، وفي كتبه المنسوبة إليه، كـ "الفتوحات" و"الفصوص" وغيرهما، هل تحل قراءتها وإقراؤها للناس أم لا؟ أفوتونا ماجورين. فأجاب رحمه الله رحمة واسعة:- اللهم أنطقنا بما في رضاك، الذي أقوله في حال المسؤول عنه، وأعتقد وأدين الله سبحانه وتعالى به، أنه كان شيخ الطريقة حالاً وعلماً، وإمام الحقيقة حذاً ورسماً، ومحيي رسول الله المعارف فعلاً واسماً. إذا تغلغل فكر المرء في طرف من بحره غرقت فيه خواطره في غُباب لا تدركه الدُّلاء، وسحاب تنقاصر عنه الأنواء. وأما دعواته فإنها تخرق السبع الطباق، وتفترق بركاته فتملاً الآفاق، وإنِّي أصفه، وهو يقيناً فوق ما وصفته، وغالب ظني أنني ما أنصفته:

وَمَا عَلَيَّ إِذَا مَا قُلْتُ مَعْتَقِدِي  
دَعِ الْجَهْلُولَ يَظُنَّ الْجَهْلَ عُدُونَا  
وَاللَّهُ تَالِهُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَمَنْ  
أَقَامَهُ حُجَّةً اللهُ بُرْهَانًا  
إِنَّ الَّذِي قُلْتُ بَعْضَ مَنْ مَنَاقِبِهِ  
مَا زِدْتُ إِلَّا لَعَلِّي زِدْتُ نَقْصَانًا

وأما كتبه فإنها البحار الزوَّاهر، جواهرها لا يُعرَف لها أولٌ من آخر، ما وضع الواضعون مثلها، وإنما خصَّ الله بمعرفتها أهلها، فمن خواص كتبه أنه من لازم مطالعتها والنظر فيها انحل فهمه لحل المشكلات وفهم المعضلات، وهذا ما وصلت إليه طاقتي في مدحه، والحمد لله رب العالمين.

وكذلك أجاب ابن كمال باشا<sup>(1)</sup> بما صورته: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لمن جعل من عباده العلماء المصلحين، ورثة الأنبياء والمرسلين، والصلاة والسلام على محمد المبعوث لإصلاح الضَّالِّين والمُضِلِّين، وآله وأصحابه المُجِدِّين لإجراء الشرع المبين.

وبعد: أيُّها الناس! اعلموا أن الشيخ الأعظم، المقتدى الأكرم، قطب العارفين، وإمام الموحدين، محمد بن علي بن العربي الطائفي الأندلسي، مجتهد كامل، ومرشد فاضل، له مناقب عجيبة، وخوارق غريبة، وتلامذة كثيرة، مقبولة عند العلماء والفضلاء، فمن أنكره فقد أخطأ، وإن أصرَّ في إنكاره فقد ضلَّ، يجب على السلطان تأديبه، وعن هذا الاعتقاد تحويله، إذ السلطان مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وله مُصَنَّفَات كثيرة، منها: "فصوص حكيمية" و"فتوحات مكِّيَّة". وبعض مسائلها معلوم اللفظ والمعنى، وموافق للأمر الإلهي والشرع النبوي، وبعضها خفي عن إنزارك أهل الظاهر دون أهل الكشف والباطن، فمن لم يطلع على المعنى المرام يجب عليه السكوت في هذا المقام، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [

(1) أعله نقل هذا الكلام عن كتابه "طبقات المجتهدين" وهو مخطوط لم يطبع بعد كما ذكر الزركلي في ترجمته من كتابه "الإعلام"، (1/133).

[الإسراء: 36]، والله الهادي إلى سبيل الصواب، وإليه المرجع والمآب. انتهى.

وكلّ الجوابين مكتوب في ضريح المترجم فوق رأسه، والله أعلم.

ثم قال المناوي: وأخبر الشّعراوي عن بعض إخوانه أنه شاهد رجلاً أتى ليلاً بنار ليحرق تابوته فخسف به وغاب بالأرض. فأحس أهله، فحفروا فوجدوا رأسه، فكلما حفروا نزل في الأرض، فعبّزوا وأهالوا عليه التراب. قال (1): ومن تأمل سيرة ابن عربي وأخلاقه الحسنة وإنسلاخه من حظوظ نفسه وترك العصبية، حمل ذلك على محبته واعتقاده. ومما وقع له أن رجلاً من دمشق فرض على نفسه أن يلعبه كل يوم عشر مرات، فمات. وحضر ابن عربي جنازته ثم رجع فجلس ببيته وتوجه للقبلة، فلما جاء وقت الغداء أحضر إليه فلم يأكل، ولم يزل على حاله إلى بعد العشاء، فالتفت مسروراً وطلب العشاء وأكل. فقليل له في ذلك، فقال: التزمت مع الله أني لا أكل ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذي كان يلعبني، وذكرت له سبعين ألف لا إله إلا الله، فغفر له.

وقد أودى الشيخ كثيراً في حياته وبعد مماته بما لم يقع نظيره لغيره، وقد أخبر هو عن نفسه بذلك، وذلك من غرر كراماته، فقد قال في "الفتوحات" كنت نائماً في مقام إبراهيم، وإذا بقاتل من الأرواح -أرواح الملائكة- يقول لي عن الله: ادخل مقام إبراهيم، إنه كان أواهاً حليماً (2)، فعلمت أنه لابد أن يبتليني بكلام في عرضي من قوم، فأعاملهم بالحلم. قال: ويكون أذى كثيراً، فإنه جاء بحليم بصيغة المبالغة، ثم وصفه بالأواه، وهو من يكثر منه التأوه لما يشاهد من جلال الله. انتهى.

وقال الصفي بن أبي منصور: جمع ابن عربي بين العلوم الكسبية والعلوم الوهية، وكان غلب عليه التوحيد علماً وخلقاً وخلقاً، لا يكثر بالوجود مقبلاً كان أو معرضاً.

وقال تلميذه الصدر القونوي الرومي (3): كان شيخنا ابن عربي متمكناً من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء الماضين، على ثلاثة أنحاء، إن شاء الله، استنزل روحانيته في هذا العالم، وأدركه متجسداً في صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العصرية، التي كانت له في حياته الدنيا. وإن شاء الله، أحضره في نومه، وإن شاء انسلخ عن هيكله واجتمع به (4). وهو أكثر القوم كلاماً في الطريق، فمن ذلك. ما قال: ما ظهر على العبد إلا ما استقر في باطنه، فما أثر فيه سواه. فمن فهم هذه الحكمة وجعلها مشهودة أراح نفسه من التعلق بغيره، وعلم أنه لا يؤتى عليه بخير ولا شر إلا منه، وأقام العذر لكل موجود. وقال: إذا ترادفت عليك الغفلات وكثرة النوم، فلا تسخط ولا تلتفت.

(1) القاتل المناوي.

(2) وذلك محاكاة لقوله تعالى: (إن إبراهيم لأواه حليم) [التوبة: 114].

(3) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الرومي، صدر الدين، صوفي من كبار تلامذة الشيخ محيي الدين بن العربي، تزوج ابن عربي أمه ورباه، له مصنفات في التصوف. مات سنة ستمائة وثلاث وسبعون. انظر:

"طبقات الشافعية الكبرى" (45/8)، و"الأعلام"، (30/6).

(4) علق فضيلة والدي وأستاذي المحدث الشيخ عبد القادر الأرنؤوط بقوله: "كل هذا من المبالغات التي لا تجوز".

لذلك، فإن من نظر الأسباب، مع الحقّ أشرك. كن مع الله بما يريد لا مع نفسك بما تريد، لكن لا بد من الاستغفار.

وقال: علامة الراسخ أن يزداد تمكناً عند سلبه، لأنه مع الحقّ بما أحبّ، فمن وجد اللذة في حال المعرفة دون السلب فهو مع نفسه غيبّة وحضوراً.

وقال: من صدق في شيء وتعلقت همته بحصوله، كان له عاجلاً أو آجلاً، فإن لم يصل إليه في الدنيا فهو له في الآخرة. ومن مات قبل الفتح رُفِعَ إلى محلّ همته.

وقال: العارف يعرف ببصره ما يعرفه غيره ببصيرته، ويعرف ببصيرته ما لا يدركه. أحد إلا نادراً. ومع ذلك فلا يأمن على نفسه من نفسه، فكيف يأمن على نفسه من مقدور ربّه، وهذا مما قطع الظهور (سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)، [الأعراف: 182].

وقال: لا ينقص العارف قوله لتلميذه: خذ هذا العلم الذي لا تجده عند غيري، ونحوه مما فيه تزكية نفسه، لأن قصده حث المتعلم على القبول.

وقال: كلام العارف على صورة السامع بحسب قوة استعداده وضعفه، وشبهته القائمة بباطنه.

وقال: كل من ثقل عليك الجواب عن كلامه، فلا تجبه، فإن وعاءه ملآن لا يسع الجواب.

وقال: من صحّ له قدم في التوحيد، انتفت عنه الدعاوى من نحو رياء وإعجاب، فإنه يجد جميع الصفات المحمودّة لله لا له، والعبد لا يعجب بعمل غيره ولا بمتاع غيره.

وقال: من ملكته نفسه عذّب بنار التدبير، ومن ملكه الله عذّب بنار الاختبار، ومن عجز عن العجز أذاقه الله حلاوة الإيمان، ولم يبق عنده حجاب.

وقال: من أدرك من نفسه التغيّر والتبدّل في كل نفس، فهو العالم بقوله تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)، [الرّحمن: 29].

وقال: من طلب دليلاً على وحدانية الله تعالى، كان الحمار أعرف بالله منه.

وقال: الجاهل لا يرى جهله لأنه في ظلمته. والعالم لا يرى علمه لأنه في ضياء نوره، ولا يجري شيء إلا بغيره، فالمرأة تخبرك بعيوب صورتك وتصدقها مع جهلك بما أخبرت به، والعالم يخبرك بعيوب نفسك مع علمك بما أخبرك به وتكذبه، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

وقال: حسن الأدب في الظاهر آية حسنة في الباطن، فأياك وسوء الظنّ والسلام.

وقال: معنى الفتح عندهم كشف حجاب النفس، أو القلب، أو الروح، أو السر لما في الكتاب والسنة.

وقال: وربما فهم أحدهم من اللفظ ضد ما قصده المتكلم. سمع بعض علماء بغداد رجلاً من شربة الخمر ينشد:

إذا العُشُرُونَ مِنْ شَعْبَانٍ وَكُنْتُ      فَوَاصِلُ شُرْبٍ لَيْلِكَ بِالنَّهَارِ

فَإِنَّ الْوَقْتَ ضَاقَ عَلَى الصَّغَارِ

وَلَا تَشْرَبْ بِأَقْدَاحِ صِغَارٍ

فهام على وجهه في البرية، حتى مات.

وقال: كثيراً ما تهب في قلوب العارفين نفحات الهيبة، فإن نطقوا بها جهلهم كمل العارفين، وردّها عليهم أصحاب الأدلة من أهل الظاهر. وغاب عن هؤلاء أنه تعالى كما أعطى أوليائه الكرامات، التي هي فرع المعجزات، فلا يدع أن تنطق ألسنتهم بعبارات يعجز العلماء عن فهمها.

وقال: من لم يقم بقلبه تصديق ما يسمعه من كلام القوم، فلا يجالسهم، فإن مجالستهم بغير تصديق سمّ قاتل.

وقال شدة القرب حجاب، كما أن غاية البعد حجاب، وإن كان الحق أقرب إلينا من حبل الوريد، فأين السبعون ألف حجاب.

وقال: لا تدخل الشبهة في المعارف والأسرار الربّانية، وإنما محلها العلوم النظرية.

وقال: نهاية العارفين منقولة غير معقولة، فما تمّ عندهم إلا بداية وتتقضي أعمارهم، وهم مع الله على أول قدم.

وقال: كل من آمن بدليل فلا وثوق بإيمانه، لأنه نظري، فهو معرض للقوادح، بخلاف الإيمان الضروري الذي يوجد في القلب ولا يمكن دفعه. وكل علم حصل عن نظر وفكر لا يسلم من دخول الشبهة عليه ولا الحيرة فيه.

وقال: شرط الكامل، الإحسان إلى أعدائه وهم لا يشعرون، تخلّق بأخلاق الله، فإنه دائم الإحسان إلى من سمّاهم أعداءه، مع جهل الأعداء به.

وقال: شرط الشيخ أن يكون عنده جميع ما يحتاجه المريد في التربية لا ظهور كرامة، ولا كشف باطن المريد.

وقال: الشفقة على الخلق أحق بالرعاية من الغيرة في الله، لأن الغيرة لا أصل لها في الحقائق الثبوتية، لأنها من الغيرية، ولا غيرية هناك (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها)، [الأنفال: 61]، (وجزاء سيئة سيئة مثله) [الشورى: 40]، فجعل القصاص سيئة، أي إن ذلك الفعل سيء مع كونه مشروعا، وكل ذلك تعظيماً لهذه النشأة التي تولى الحق خلقها بيده، واستخلفها في الأرض، وحرّم على عباده السعي في إتلافها بغير إذنه.

وقال: الصوفي، من أسقط الباءات الثلاث، فلا يقول: لي، ولا عندي، ولا متاعي، أي لا يضيف لنفسه شيئاً.

وقال: "الدعاء مُخ العِبَادَة" (1) وبالمخ تكون القوة للأعضاء، فلذا تتقوى به عبادة العابدين.

(1) رواه الترمذي رقم (3368) في الدعوات. باب ما جاء في فضل الدعاء من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي سنده عبد الله بن لبيعة وهو ضعيف. ويعني عنه حديث "الدعاء هو العبادة" من حديث النعمان بن بشير رضي الله



وقال: تَحَقَّظْ من لذات الأحوال، فإنها سموم قاتلة، وحجب مانعة.

وقال: لا يَغُرَّنْكَ إِمهاله (1)، فإن بطشه شديد، والشقي من اتَّعَظَ بنفسه.

ولا يَغُرَّنْكَ مَنْ خالف فجوزي بإحسان المعارف، ووقف في أحسن المواقف، وتجلَّت له المشاهد، هذا كله مكرٌّ به واستدراج من حيث لا يعلم، قل له إذا احتجَّ عليك بنفسه:

سَوْفَ تَرَى إِذَا اتَّجَلَّى الْغُبَارُ  
أَفْرَسَ تَخَضُّعِكَ أَمْ حِمَارُ

وقال: لا يصح لعبد مقام المعرفة بالله وهو يجعل حكماً من شرائع الأنبياء، فمن ادعى المعرفة واستشكل حكماً واحداً في الشريعة المحمدية أو غيرها فهو كاذب.

وقال: أجمعت الطائفة على أن العالم بالله عين الجهل به تعالى.

وقال: إذا ذكر الله الذَّاكِر ولم يخشع قلبه، ولا خضع عند ذكره إيَّاه، لم يحترم الجنب الإلهي، ولم يأت بما يليق به من التعظيم، وأول ما تمقته جوارحه وجميع أجزاء بدنه.

وقال: الأسماء الإلهية كلها التي عليها يتوقف وجود العالم أربعة لا غير: الحي، القادر، المريد، العالم. وبهذه الأسماء ثبت كونه إلهاً.

وقال: أخبرني من أتق به، قال: دخلت على رجل فقيه، عالم متكلم، فوجدته بمجلس فيه الخمر وهو يشرب. ففرغ النبيذ، فقيل له: انفذ إلى فلان يأتي بنبيذ، فقال: لا، فإني ما أصررت على معصية قط، ولي بين الكاسين توبة ولا أنتظره، فإذا حصل بيدي أنظر هل يوفقني ربِّي فأتركه أو يخذلني فأشربه، ثم قال -أعني ابن عربي-: فهكذا العلماء. انتهى كلام المناوي ملخصاً (2).

وأقول: ومن كلامه أيضاً:

مَا نَالَ مَنْ جَعَلَ الشَّرِيعَةَ جَانِباً  
شَيْئاً وَلَوْ بَلَغَ السَّمَاءَ مَنَارُهُ  
ومن شعره الرائع قوله:

حَقِيقَتِي هَمَّتْ بِهَا  
وَلَوْ رَأَاهَا لَغَدَا  
فَعِنْدَ مَا أَبْصَرْتُهَا  
فَبِتُّ مَسْخُوراً بِهَا  
يَا حَذْرِي مَنْ حَذْرِي  
وَمَا رَأَاهَا بَصَرِي  
فَتَلَّى ذَاكَ الْحَوْرِ  
صَبَرْتُ بِحُكْمِ النَّظَرِ  
أَهْلِيْمُ حَتَّى السَّحَرِ  
لَوْ كَانَ يُقْنِي حَذْرِي

عنه، رواه الترمذي رقم (3369)، في الدعوات: باب رقم (2) وابن ماجه رقم (3828) في الدعاء: باب فضل الدعاء، وهو حديث صحيح.

(1) يعني الله تعالى.

(2) علق فضيلة والدي وأستاذي المحدث الشيخ عبد القادر الأرنؤوط بقوله: "وفي كلامه كله مبالغات لا يقرها الإسلام".

والله ما هيئت  
يا حسنها من ظنية  
إذا رئت أو عطفت  
كأنما أنفاسها  
كأنها شمس الضحى  
إن سافرت أنرزها  
أو ساءت غيبها  
يا قمر تحت دجى  
عسى لكى أبصركم  
جَمَّالَ ذَاكَ الْخَفَرِ  
تَـرعى بِذَاتِ الْخُمَرِ  
تَسبى عَقُولَ الْبَشَرِ  
أَعْرَافُ مِسْكٍ عَطِرِ  
فِي النُّورِ أَوْ كَالْقَمَرِ  
نُورُ صَبَاحِ مَسْفِرِ  
ظَلَامَ ذَاكَ الشَّعَرِ  
خُذِي فَوَادِي أَوْ ذُرِي  
إِنْ كَانَ حَظِّي نَظْرِي

وكان يقول: أعرف الاسم الأعظم، وأعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب، وكان مجتهداً مطلقاً بلا ريب.

قال في رائيته:

لَقَدْ حَرَّمَ الرَّحْمَنُ تَقْلِيدَ مَالِكٍ  
وَقَالَ أَيْضاً فِي نُونِيته:  
لَسْتُ مِمَّنْ يَقُولُ قَالَ ابْنُ حَزْمٍ  
وَأَحْمَدُ وَالنُّعْمَانُ وَالْكُلُّ فَاعْذَرُوا  
لَا وَلَا أَخْمَدُ وَلَا النُّعْمَانُ

وهذا قول صريح بالاجتهاد المطلق، كيف لا وقد قال: عُرِضَتْ أَحَادِيثُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمِيعاً عَلَيْهِ، فَكَانَ يَقُولُ عَنْ أَحَادِيثٍ: صَحَّتْ مِنْ جِهَةِ الصَّنَاعَةِ قَلَّتْهَا، وَعَنْ أَحَادِيثٍ ضَعُفَتْ مِنْ جِهَتِهَا قَلَّتْهَا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مُجْتَهِداً فَلَيْسَ اللهُ مُجْتَهِداً.

إِنْ لَمْ تَرَهُ فَهَذِهِ آثَارُهُ

هذا وما نقم عليه أحد فيما أعلم بغير ما فهمه من كلامه من الحلول أو الاتحاد: وما تفرع عليهما من كفر أو إلحاد، وساحته النزهة منهما، وشأوه أبعد شأواً عنهما، وكلامه يشهد بهذا.

خَلِي افْتِرَاكَ فَذَاكَ خَلِي لَا ذَا

فَقَالَ فِي "فَتْوحَاتِهِ الْمَكِّيَّةِ"، الَّتِي هِيَ قِرَّةُ عَيْنِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ، فِي الْبَابِ الثَّانِيِ وَالتَّاسِعِينَ وَمِائَتَيْنِ: "مَنْ أَعْظَمَ دَلِيلٍ عَلَى نَفْيِ الْحُلُولِ وَالْإِتِّحَادِ الَّذِي يَتَوَهَّمُهُ بَعْضُهُمْ، أَنْ تَعْلَمَ عَقْلاً أَنَّ الْقَمَرَ لَيْسَ فِيهِ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ شَيْءٌ، وَأَنَّ الشَّمْسَ مَا انْتَقَلَتْ إِلَيْهِ بِذَاتِهَا، وَإِنَّمَا كَانَ الْقَمَرُ مُحَلَّلاً لَهَا، كَذَلِكَ

(1) العبد ليس فيه من خالقه شيء ولا حل فيه.

وقال أيضاً فيها في الباب الثامن والسبعين، كما نقله عنه الشعراني في كتابه "البواقيت والجواهر" في بيان عقائد الأكابر: "إن الله تعالى لم (2) يوجد العالم لافتقاره إليه؛ وإنما الأسباب في حال عدمها الإمكانية لها طلبت وجودها ممن هي مفتقرة إليه بالذات، وهو الله تعالى، لا تعرف غيره، فلما طلبت بفقرها الذاتي من الله تعالى أن يوجد لها، قبل الحق سؤالها، لا من حاجة قامت به إليها، لأنها كانت مشهودة له تعالى في حال عدمها النبي كما هي مشهودة له في حال وجودها سواء، فهو يدرها سبحانه - على ما هي عليه في حقائقها حال وجودها وعدمها، وبإدراك واحد، فلماذا لم يكن إيجادها للأشياء عن فقر، بخلاف العبد. فإن الحق تعالى لو أعطاه جزء "كن" وأراد إيجاد شيء لا يوجد إلا عن فقر إليه وحاجة، فما طلب العبد إلا ما ليس عنده، فقد افترق إيجاد العبد عن إيجاد الحق تعالى، قال: وهذه مسألة لو ذهبت عينك جزءاً لتحصيلها لكان قليلاً في حقها، فإنها مزلة قدم، زل فيها كثير من أهل الله تعالى، والتحقوا فيها بمن ذمهم الله تعالى في قوله: (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) [آل عمران: 181]، انتهى. فإن قلت: قد نقل بعضهم عن الشيخ أنه كان ينشد:

الْكُلُّ مُفْتَقِرٌ مَّا الْكُلُّ مُسْتَغْنِي  
هَذَا هُوَ الْحَقُّ قَدْ قُلْنَا وَلَا نَكْنِي (3)

فالجواب: إن هذا ومثله من المدسوس في كتاب "الفصوص" وغيره، فإن هذا يكذبه الناقل عنه خلاف ذلك. انتهى كلام الشعراني.

توفي رحمه الله ورضي عنه - في الثاني والعشرين من ربيع الآخر بدمشق، في دار القاضي محيي الدين بن الزكي، وحمل إلى قاسيون فدفن في تربته المعلومة الشريفة، التي هي قطعة من رياض الجنة، والله تعالى أعلم.



(1) هذا ما نقله الشعراني في كتابه البواقيت والجواهر؟

(2) هذا ما نقله الشعراني في كتابه البواقيت والجواهر؟

(3) قل: جاء في هامش "ط" ما نصه: "أقول: ليس في هذا البيت نص أنه بالكل حتى الله، بل المراد من المخلوقات، ولا حاجة إلى الجواب بأنه مدسوس"، لكاتبه داود كما في هامش الأصل.